من هنا فهو يرتبط بالطبقات الثورية عبر الالتحام بحركتها ، وبمقدار قدرة هذا الالتحام ان يكون جذريا ، تصبح القصيدة تاريخا متحركا .

غير ان محاولة سميح القاسم تكتسب مشروعيتها من اطار آخر . فهي نسج حول الذات ينفلت من البداية ويغرق في الماضي الفني لسميح القاسم . أي ان الشعر ينكسر امام اطاراته القديمة. فعوض ان تنفجر القصيدة داخل حدود الحلم فانها تلتمع التماعات خاطفة ثم تطفو . فمشروعية محاولة القاسم وان كانت جزءا من محاولة البحث عن مخارج جديدة للشعر وعن دور له ، فانها تبقى مشدودة ضمن الرؤية الفنية السابقة . الخيط الواحد الذي يمتد عبر القصيدة بأسرها . والتوتر الانفعالي الذي يأتي من علاقة الاشياء ببعضها . والتضمينات الكثيرة التي تحاول ان تعطي القصيدة شعرا ممتلئا . والتتابع في ايقاع الشعر الذي يخبو تدريجيا . يعلو في وسط القصيدة امام علاقة الشاعر ـ النبي بشعبه . ثم يعود ليخبو ، تاركا المجال للصور المتلاحقة التي تذكرنا بالتتابعية الوصفية عند الماغوط . لكن تتابعية القاسم لا تمتلىء بهذا الطموح ، لان الشاعر يعود للتدخل بعنف ولا يترك للصور مهمة حمل رؤيته الفنية كما يفعل الماغوط عادة .

تدخلنا « مراثي سميح القاسم » في اشكالية بالغة الغنى والتعقيد . فهي تطرح بعنف مشكلة العلاقة بين الشكل والمضمون . ليس على مستوى سطح هذه العلاقة . بل على مستوى اعماقها . أي على مستوى قدرة الشكل على التغلغل داخل رؤية المنطلق واستيعابه لها في عملية التبلور التشكيلي الذي يرافق القصيدة . والواقع ان الذي يطرح هذه المشكلة هو تردد الشاعر في تعامله مع اللغة ، وامساكه لطرف لعبة التشكيل في القصيدة من الوسط . هذا التردد هو في المقابل دليل على أزمة جدية . أزمة القدرة على البقاء داخل الوعي الجماعي المتبلور حول نقطة الهدف. والنظر الى هذه النقطة بوصفها نتاجا لعملية معقدة . فرؤية المنطلق عند سميح القاسم يدمرها اصراره على ان يبقى محافظا على اشكاله القديمة . لذلك يحاول ان يتداخل مع انجازات الحركة الشعرية المعاصرة ، طالما لا تمس هذه الانجازات الذات الفني الذي بناه الشاعر لنفسه . اي انه لا يقفز في الهواء . يبقى على الارض . ويدرس كل خطوة يخطوها الى الامام بحواسه الخمس . ولا يترك لعلاقته الوجودية بحركة الجماهير ان تكتشف لنفسها طريقا . هكذا تخفت القصيدة . فهي حين تنطلق من ذروة الاوجاع الجماعية التي في « مراثي ارميا » ترسم لنفسها عمقا خاصا لا يلبث ان يطفو ويطفو أمام الصيغ الجاهزة . ولا ينقذ القصيدة سوى العودة الى الغنائيات المكثفة التي طالعنا بها الشعر الفلسطيني في بدايات انطلاقه .

المراثي تتجمد امام طرفي المعادلة الفنية . فالمضمون الجديد يحطم الشكل القديم . والشكل القديم ولو لبس ثياب المزامير او استعار لهجة القرآن ، فانه لا يستطيع ان يتحمل الرؤية الفنية. لذلك فهو يجمدها في مكانها ولا يسمح لها بالوصول الى وجدان القارىء .

تحمل مراثي « سميح القاسم » الما عميقا ، ورؤية مأساوية نادرة . وهي في اشكاليتها الفنية تلقي العديد من الاضواء ، لان اهميتها التاريخية هي كونها تجريبية الطابع . تقف أمام المنعطف ولا تدخله لكنها تطرح المشكلة عبر معاناة حقيقية . انها بداية تستطيع ان تتقدم اذا تغلبت على سطح العلاقات التي تمنعها من التقدم . فنحن لم نعد نقبل ان يكون الشعر الفلسطيني شدا لابصارنا نحو الارض بل نطمح ان يكون توترا طليعيا يحمل الحياة ويضمنا داخل العملية الثورية .

الياس خوري